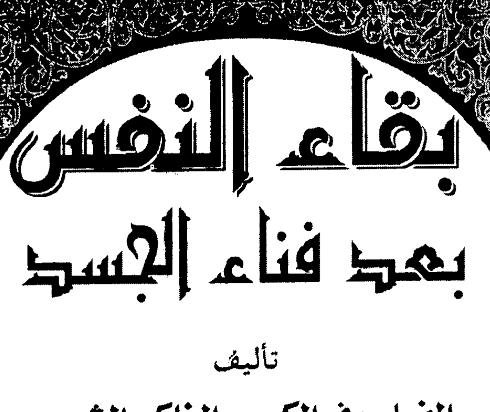


بقاء النفس بعد فناء الجسد

تأليف

الفيلسوف الكبير والفلكى الشهير
نصير الدين محمد بن محمد
الطوسى الوزير
المتوفى سنة ٦٧٢ هـ

شرح العلامة الكبير
والمصلح النحرير

الأستاذ الشيخ أبى عبد الله الزنجانى

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

الناشر
المكتبة الأزهرية للتراث
٩ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر
ت : ٥١٢٠٨٤٧

خُلق الناس للبقاء فضلّت

أمة يحسبونهم للنفاد

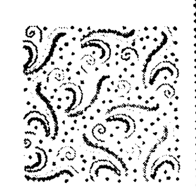
وإنما ينقلون من دار أعما

ل إلى دار شقوة أو رشاد

أبو العلاء المعرى



بسم الله الرحمن الرحيم



كلمات وجيزة عن الكتاب

ومؤلفه وشارحه وعن التعليق والمعلق

كلمة عن المتن وصاحبه

المتن صحيفة في إثبات تجرد النفس الناطقة وبقائها بعد فناء الجسد على أسلوب القدماء من حكماء الإسلام. صيغ كرسالة بقلم الوزير الكبير الفيلسوف الشهير نصير الدين محمد بن محمد الطوسي المتوفى سنة ٦٧٢ هـ. وكان تلاميذه كالقطب الشيرازي والنظام النيسابوري والعلامة الحلي يلقبونه «أستاذ البشر». وقد أحله الإفرنج محلاً سامياً لا يدانيه فيه أي فيلسوف في الشرق حتى إنهم سموا باسمه جبلاً اكتشفوه في كرة القمر تذكاراً لذكرى خدماته العلمية البشرية.

كلمة عن الشارح

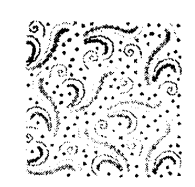
والشرح بقلم العالم الكبير الأستاذ الشيخ أبي عبد الله الزنجاني صاحب تاريخ القرآن أوضح فيه مقصد الفيلسوف نصير الدين ووضع مقدمة مبسوطة تكفل تاريخ المذاهب في

المادة والنفس فى الأدوار الفلسفية وأعرب فى الشرح عن رأيه الخاص.

كلمة عن التعليق والمعلق

بعض التعليقات شذرات تاريخية ودينية وفلسفية بقلم العلامة الحكيم والمصلح العظيم معالى هبة الدين الحسينى الشهرستانى وزير المعارف الأسبق فى العراق وضعت لها علامة هـ ن .

بسم الله الرحمن الرحيم



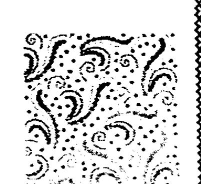
مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على كافة الأنبياء والمرسلين، سيما سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين.

وبعد.. فقد عثرت على نسخة مخطوطة من هذا الأثر النفيس تاريخ كتابتها فى حدود سنة ١١٠٠ هـ وأطلت فيها النظر حينما كنت مشغوفا بكشف خوافى أسرار علم النفس ودرس أحوالها تجلت لى كأنها ينبوع نور ينبثق عنه أشعة تضيئ غياهب الجهل مع أنها ليست إلا بضعة سطور فيها أفكار سامية ومعانٍ عالية ترشد الحائر الذى خانه الدليل إلى سواء السبيل وأسلوبها بلغ من درجات الكمال أعلاها ومن مراقى الجمال أسماها فلا غرو فإن واضعها أكبر فيلسوف جاد به القرن السابع وأنور قبس ظهر فى ظلمة مدلهمة فآثرت شرحها شرحا يوافق أسلوب العصر واضعاً لها مقدمة مبسوطة تبين مقام الروح والمادة فلسفيّاً فى الأدوار الثلاثة الدور اليونانى فالعربى الإسلامى فالإفرنجى وذاكراً مختصراً من البسكولوجيا[1] العصرى ليكون وافيا بالغرض وأتوخى به خدمة العلم الصحيح.

---

(١) علم النفس.



كلمة عن نفس الرسالة

وضع الفيلسوف الأعظم نصير الدين هذه الرسالة لتلميذه مؤيد الدين الفلكي المهندس الذي عاضده في مرصد مراغه ذكر اسمها في عداد مصنفاته من القدماء محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي المتوفى سنة ٧٦٤ في كتابه (فوات الوفيات) وذكرها من المتأخرين محمد حسن خان الأديب الفارسي الشهير بالحكيم في كتابه - كنج دانش[1] - الذي وضعه في الجغرافيا والبلدان، والعالم الجليل الشيخ عبد العزيز الجواهري في كتابه الكبير آثار الشيعة الإمامية.

---

(١) (كنج دانش) كلمة فارسية بمعنى - مخزن العرفان - وهو يبحث عن البلدان والتواريخ وتراجم مشاهير الرجال.

مذاهب حكماء اليونان
فى المادة والروح

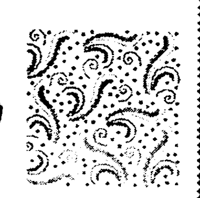
بنى أفلاطون(١) أساس مذهبه فى تكوين العالم على أزلية مادة أصلية يعبر عنها بالعنصر المصور أو الهيولى(٢) الأولى لا شكل لها ولا مثال مستعد لقبول الصور فإذا قبلت الصورة تكون بمثابة الأم للأشياء وهذه المادة أصل العالم ومنها أخذ العالم شكله وكيانه ومذهبه ينبئ عن استحالة خلق الشيء من لا شيء والمعلولات على اختلافها على مذهبه تنتهى إلى علة أولى سرمدية.

نسب إليه فلوطرخس فى رسالته فى (الآراء الطبيعية) أن أفلاطون يقول إن الأجسام كانت فى البدء متحركة حركة غير منتظمة والإله رتبها بالنظام حيث النظام أفضل من لا نظام.

---

(١) أفلاطون "Platon" من أشهر فلاسفة اليونان. ولد فى أثينا فى السنة الأولى من الأولمبياذة الثامنة والثمانين نحو سنة ٤٣٠ قبل المسيح. وتوفى فى السنة الأولى من الأولمبياذة المائة والثامنة نحو سنة ٣٤٨ عن ٨١ سنة. وهو من عائلة وجيهة أبوه أريستون من نسل قدروس آخر ملوك أثينا القدماء وأمه بريسكون من نسل صولون الحكيم.

(٢) الهيولى كلمة يونانية معناها الأصل والمادة وفى الاصطلاح هى جوهر فى الجسم قابل لما يعرض لذلك الجسم من الاتصال والانفصال محل للصورتين الجسمية والنوعية.



مذهب أرسطو[1] فى المادة والنفس

ذهب هذا الفيلسوف بأزلية الأفلاك التى توهمها القدماء وهى عنده من عنصر خامس غير العناصر الأربعة غير فاسد يسمى (بالأثير) ويعبر عنه بالجوهر الإلهى فهو لا يقبل أى تأثير وتغيير وزوال.

فالمادة الأصلية أو العنصر غير المصور التى يسميها ابن رشد شارح فلسفة أرسطو بالمادة القصوى لا فاعل لها عند أرسطو ولكن فاضت إلى تلك الأفلاك من القوة المدبرة الخفية حركة تحرك بها الجسم الأول أى الفلك الأعلى وبحركتها تحرك جميع ما اتصل به حتى انتهت الحركة الكل (كذا)[2] وهذه الحركة أيضاً أزلية فحقيقة هذه النظرية تنبئ عن أزلية الآثار العلوية وأزلية حركتها واستحالة خلق الشىء من لا شىء.

---

(١) أرسطو "Aristote" هو فيلسوف يونانى عظيم. ولد فى بلدة «ستاجير» من بلاد مقدونيا ولمؤلفاته أهمية كبرى وتعتبر كدائرة معارف عند العلماء ومنها (تاريخ الحيوانات) "L'Histoire des Animaus" وقد توفى فى «شالكيس» (سنة ٣٨٤ - ٣٢٢ قبل المسيح).

(٢) نقلت العبارة عن رسالة أرسطو الذهبية ولعل الصحيح إلى الكل.

ووظيفة القوة المدبرة القاهرة أى القوة الإلهية تحريك هذه الأجسام بنظامها المتين والعالم لو فارقته هذه القوة الصمدانية لا يتهيأ له الثبات والدوام قال فى رسالته المعروفة (بالرسالة الذهبية) التى وضعها (لإسكندر الملك) وعربها عيسى بن إبراهيم النفيسى أن الإجماع يترافع قديماً وحديثاً أن قوام كل شيء وثباته من الله تعالى عز وجل ليست فى العالم طبيعة واحدة يتهيأ لها الثبات إذا فارقتها القوة الصمدانية والمعونة الإلهية[١] وهو ينكر باتا تأخر صدور الفعل عن العلة الأولى تأخراً زمانياً، والعقل[٢] عنده غير مسبوق بالزمان بل مسبوق بذات الفاعل وأول كلمات بعض الفلاسفة التى يستظهر منها تأخر صدور الفعل تأخراً زمانيّاً بأنهم (لما أرادوا التعبير عن العلية افتقروا إلى ذكر القبلية، والقبلية فى اللفظ يتناول الزمان وكذلك فى المعنى عند من لم يتدرب) وهو ينفى وجود فرق جوهرى بين رأيه ورأى الفلاسفة فى ذلك وهذان النابغتان يعترفان بالعلة الأولى الفاعلة المدبرة مع نفيهما الحدوث زماناً عن المادة الأصلية وفئة من فطاحل الفلاسفة اليونانيين يذهبون إلى أزلية المادة وينكرون العلة الفاعلة.

---

(١) والرسالة من أجمل الآثار العلمية.

(٢) والمراد من العقل هو العقل الأول الذى هو مصدر ثان جوهرى لكافة المعلولات.

(منهم) : أرسالاوس[1] من أثينا مذهبه أن مبدأ العالم ما لا نهاية له يعرض فيه التكاثف والتخلخل فمنه ما يصير ناراً ومنه ما يصير ماء.

ومنهم (أثا كمندوس من ملت) يذهب بأن مبدأ العالم والموجودات ما لا نهاية له ومنه كان الكل وإليه ينتهى الكل ولذلك يرى أنه يتكون عوالم غير متناهية فيفسد ويرجع إلى الشيء الذى منه تكونت تلك العوالم ولا يعتريه نقصان وهو موجود دائمى.

ومنهم (إبيقورس)[2] الفيلسوف من أثينا المعاصر لذيمقراطيس مذهبه أن مبدأ الموجودات أجسام صغار (أى ذرات صغيرة لا يدركها الحس لصغرها) وهى أزلية غير فاسدة ولا يعرض لشيء من أجزائها اختلاف ولا استحالة وهى ذات شكل وثقل.

---

(١) أرسالاوس. "Areésilaus" أو : أرسيزيلاس "Areésilas" هو حكيم يونانى، ولد فى «بيتان» "Pitane" ٣١٦ - ٢٤١ قبل المسيح - وهو أحد أساتذة سقراط "Socrate". وقد أسس أكاديمية عظمى فى بلاده "Le Académie" وله كثير من الفضل على تلاميذه التى لا يحصى عددهم.

(٢) إبيقوروس (Epicurs) ويقال إبيكور أو إبيقور، أحد مشاهير حكماء اليونان قيل ولد فى جزيرة ساموس (٣٤١ - ٣٧٠) قبل المسيح وقيل ولد فى جرجنسوس إحدى ضواحى أثينا وقيل إنه ولد فى (غرغته) قرية فى (أتيكة) لأن أصل سلفه من هناك وأتى به طفلا إلى «ساموس» (Samos) وكان أبوه فقيراً معلماً فى إحدى المدارس الحقيرة ويضرب بعلمه المثل فيقال : إبيقورسى (Epicurien).

ومنهم (أنبادقلس)[1] يذهب أن الأثير غير الفاسد من مبادئ الأشياء وهو يفرض الاسطقسات مؤلفة من تلك الأجزاء الصغيرة فهي بمثابة اسطسقات للاسطقسات فهي غير متناهية عنده ومقتضى نفي التناهي نفي العلة الفاعلة.

ومنهم ذيمقراطيس[2] الطبيعي الشهير ومذهبه أن الدقائق في المادة منتشرة بسيطة لا تتجزأ أزلية تفوق الحصر ولا تدرك لصغرها وهي شبيهة بالغبار الموجود في الهواء والذي لا يدرك عادة ولا يظهر إلا في شعاع الشمس ومن اتحاداتها تتكون الموجودات من جماد وحيوان والنفس عنده من جواهر لطيفة صغار.

مذهب أرسطو

وأستاذه أفلاطون في النفس

يرى الثاني أنها جوهر روحي تحرك من ذاتها، والأول يعرفها كما بين ابن سينا الفيلسوف في رسالته في النفس أنها كمال أول لجسم آلي طبيعي والفرق الجوهري بين المذهبين هو

---

(١) أنبادقلس ولد في أجريجنتا بجزيرة صقيليا سنة ٤٥٠ ق م ولم نتحقق سنة وفاته.

(٢) ديموكرت (Démocrite) أو : ذيمقراطيس، أو : ذيموكريتس. هو فيلسوف مشهور ولد في (أيديرة) من (تراقة) في القرن الخامس قبل المسيح أي عام ٤٧٠ ق. .. ولا تعرف سيرة حياته ولا تصانيفه معرفة ثابتة: أما تصانيفه فلأنها لم تصل إلينا وأما حياته فلأن ما كتبه عنه الأقدمون مختلط بحكايات لا طائل تحتها. ويزعمون أن ذيمقراطيس عاش ١٠٩ سنوات، وأنه مات باختياره كرهاً في البقاء بانقطاعه عن الطعام.

أن النفس عند أفلاطون موجودة قبل وجود البدن تتعلق به بعد وجوده: وعند أرسطو وإن كانت غير مادية إلا أن وجود البدن شرط لفيضان النفس إليه عن المبدع تعالى فعليه تكون النفس غير موجودة قبل البدن.

ثم إن أرسطو يثبت جوهراً عقليّاً مفارقاً للأجسام يقوم للنفوس البشرية مقام الضوء للبصر والنفوس إذا فارقت الأجسام تتحد به وهو المسمى (بالعقل الكلى) وهى عندهما خالدة باقية، فالخلود يختص بجزء النفس العقلى أى للنفس الناطقة[١].

رأى أبيقور وديمقراطيس

أبيقروس وديمقراطيس يذهبان إلى فناء النفس ودثورها

مذهب بعض فلاسفة اليونان فى الحياة وظهورها فى وجه الأرض

يرى أنقسمدرس[٢] أن الحيوانات الأولى تولدت فى الرطوبة وأنه كان يغشاها قشور مثل قشور السمك ولما أتت

---

(١) يانفس مثل الشمس أنتِ أشعة فى عامر وأشعة فى بلقع
فإذا طوى الله النهار تراجعت شتى الأشعة فالتقت فى المرجع

أحمد شوقى

(٢) أنقسمدرس أو : انقسيمندروس (Anaximandre) فيلسوف ورياضى يونانى فى المدرسة الأيونية. وهو ابن «بركسيدس». «ولد فى ميليتوس» ٦١٠-٥٤٧ قبل المسيح - وقد نسب إليه الأقدمون اختراعات غريبة وأعمالا عجيبة. فقالوا إنه رسم أول الخرائط الجغرافية. واخترع المزولة (الساعة الشمسية) ومنهم من قال إنه لم يخترعها بل علم أبناء بلاده كيفية استعمالها. وله مؤلف ضخم يبحث عن «اللانهاية».

عليها الدهور والسنون صارت حياتها زمناً قصيراً يسيراً فالحى عند ذيمقراطيس وأبيقورس لا يتولد إلا من الحى[1].

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقـاء ذات تعـززوتمنـع
محجوبة عن كل مقلة عارف وهى التى سفرت ولم تتبرقع

(ابن سينا)

مذهب فلاسفة الإسلام
فى المادة والروح

أشرقت جزيرة العرب بنور النبى العربى ﷺ وظهر الإسلام وأساسه توحيد الحق المبدع وتنزيهه عن كل عجز ونقص وكان العالم فى نظر المسلم الذى ربته التعاليم القرآنية الصحيحة بأرضه وسمائه وما احتوى عليه من حيوان ونبات وجماد خاضعا للقدرة الإلهية يفعل البارى ما يشاء ويحكم ما يريد. ولما بزغ فجر القرنين الثانى والثالث وجاء عصر التمدن العربى الإسلامى وجه المسلمون عزيمتهم إلى نقل كتب الفلسفة التى وضعتها الأمم الراقية كاليونان والرومان والفرس والهند وانتشرت بين المسلمين آراء فلسفية ومبادئ فكرية تلقاها قوم من علماء المسلمين بإيمان وطيد واعتقاد أكيد وبرع رجال فى تلك العلوم الفلسفية ووضعوا فلسفة مؤلفة من المبادئ اليونانية والتعاليم الإسلامية وهم فلاسفة الإسلام ومن

(١) هذا الرأى يؤيد مذهب النشوء والارتقاء الذى شاع فى القرون الأخيرة.

أكابر هؤلاء الفيلسوف ابن سينا[١] ومحمد بن محمد الفارابى[٢] وابن رشد الأندلسى الطائر الصيت واقتفت آثارهم فئة أخرى من المسلمين وقاموا بانتصارهم ولما كانت مبادئ الفلسفة اليونانية وأخواتها مشتملة على أصول من الوثنية تناقض مبادئ الديانة الإسلامية التى أساسها التوحيد ظهر قوم ووضعوا مبادئ عقلية وفق المبادئ الإسلامية وقاموا بنقض ما يناقض من تلك الآراء قواعد الشريعة الإسلامية وهم متكلمو الإسلام ومن أكابر هؤلاء حجة الإسلام أبو حامد الغزالى[٣]

---

(١) ابن سينا المتوفى سنة ٤٢٨هـ - ٩٨٠ - ١٠٣٦ يدعوه الإفرنج (Avicenne) هو أبو على الحسين بن عبد الله بن سينا البخارى المشهور بالشيخ الرئيس من كبار فلاسفة الإسلام ولد فى قرية خرمثين سنة ٣٧٠ هـ وكان حاد الذكاء نادرة عصره. انتقل أبوه إلى بخارا وهى يومئذ حافلة بالعلماء فى زمن نوح بن منصور من ملوك الدولة السامانية مات فى همذان سنة ٤٢٨ وهو فى الثامنة والخمسين ومؤلفاته تربو من المئة وترجم أكثرها إلى اللغات الغربية.

(٢) هو أبو نصر محمد بن طرخان ولد بالفاراب من أعمال خراسان سنة ٢٦٠ وتوفى بدمشق الشام سنة ٣٣٩ هـ.
ولمؤلفاته أهمية كبرى. وهو من أكابر فلاسفة الإسلام.

(٣) هو أبو حامد ابن أحمد ولد بطوس من أعمال خراسان فى سنة ٤٥٠ ومات بها سنة ٥٠٥ بعد أن مثل دوراً مهماً فى الحركة الدينية والفلسفية فى عصره. ولما هاله أمر المفكرين الأحرار كتب فى الدفاع عن الدين الإسلامى مؤلفاته الثلاثة. إحياء العلوم. ومقاصد الفلاسفة. وتهافت الفلاسفة. وأخذت الفلسفة عند العرب تتدهور وتتضاءل أمام طعنات الغزالى وكاد ينمحى أثرها فى الشرق بعد ابن سينا ولكنها نهضت فى الأندلس وابن رشد الحفيد كان من عمدة هذه النهضة.

ونصير الدين محمد الطوسى[1] والعلامة الحسن بن المطهر الحلى[2] وفخر الدين محمد بن عمر الرازى[3] وكان النضال بين الفريقين بشدة لم يعهد فى تاريخ العلم مثله وافتتح باب التأويل فى بدء الحركة العلمية لكتاب الله المجيد كل يعزز رأيه به وكتاب الله برىء عن موافقة آراء باطلة ومبادئ فاسدة.

أما الفريق الأول أى فلاسفة الإسلام أتباع فلسفة أفلاطون وأرسطو فمذهبهم أزلية مادة أصلية وفقاً لرأى الفيلسوفين وإنكار خلق الشىء من لا شىء[4] يسمونها بالهيولى[5] أو العنصر غير المصور والمحدث الحقيقى أى حدوث شىء من العدم البحث عندهم باطل بحكم الضرورة ولأبى على الفيلسوف

---

(١) المتوفى سنة (٦٧٢).

(٢) وهو الحسن بن المطهر الحلى تلميذ نصير الدين الشهير بآية الله ولكتبه وآرائه أهمية كبرى وهو من أكابر المؤلفين. ألف كتبا كثيرة فى الأصول والفقه على المذاهب الأربعة ومذهب الشيعة. وفى الفلسفة والكلام والمنطق والفلك وشرح كتاب التجريد لنصير الدين وأوضح معانيه الدقيقة توفى سنة ٧٢٨.

(٣) هو فخر الدين محمد بن عمر الرازى من كبار رجال العلم وله مؤلفات مشهورة ترجم بعضها إلى اللغات الأجنبية وكانت فلسفته دينية وعقلية توفى سنة ٦٠٦.

(٤) لم تثبت مخالفة القرآن لهذا الرأى بعد ما جاء فيه (أم خلقوا من غير شىء) إذ الاستفهام انكارى تحقيقاً. هـ. ن

(٥) الهيولى عند لوك Locke الفيلسوف مؤلف كتاب بحث العقل البشرى المولود سنة ١٦٣٢ المتوفى سنة ١٧٠٤ ضرورية للازمة.

برهان عقلي لإثبات هذه المادة أى الهيولى وهو أن الجسم فى نفسه متصل وللانفصال له قابلية ويستحيل أن يكون القابل لها هو الاتصال لنفسه لأن الشيء بنفسه لا يقبل عدمه فلابد للاتصال من محل يقبل الانفصال وذلك المحل هو الهيولى والاتصال هو الصورة، وعضد ابن رشد أزلية المادة بالنوع وحدوثها بالصورة بآيات من الكتاب المجيد وحاول بها نفى الحدوث الحقيقى أى خروج الشيء من العدم المحض كقوله تعالى (وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء) حيث يقتضى بظاهره وجوداً قبل إيجاد السموات والأرض وهو العرش والماء وقوله تعالى (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) يقتضى بظاهره حدوث العالم بمشيئة إلهية عن مادة سابقة وهى الدخان للعالم وهو يقول: أن ليس فى ظاهر الشرع ما يثبت أن الله تعالى كان موجوداً بلا وجود مخلوق[1] أى مع العدم كما زعمه المتكلمون.

وأما الفريق الثانى أى المتكلمون فمذهبهم حدوث المادة حدوثاً حقيقياً أى المادة عندهم خارجة عن العدم المحض بقدرة خفية أزلية لم ينكشف إلى الآن سرّها.

وللعلامة نصير الدين الطوسى برهان عقلي فى حدوث المادة والأجسام المتشكلة منها بأسرها: وهو أن الأجسام والمادة

---

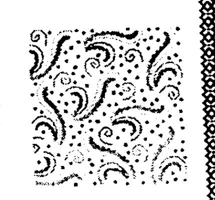
(١) كيف وقد جاء (كان الله ولم يكن معه شيء) هـ. ن.

لا تنفك عن جزئيات قضت البديهة بحدوثها وما هذا شأنه فلا بد أن يكون حادثا ، والحركة التى هى من أخص خصائص المادة هى نفسها حادثة إذ لا نعقل من انتقال[1] الشىء من حالة إلى أخرى الذى هو معنى الحركة الأسبق الحالة المنتقل عنها على الحالة المنتقل إليها سبقاً زمانياً حيث لا يجامع فيه السابق والمسبوق والمسبوق بالغير سبقاً زمانيا مسبوق بالعدم لأن معنى عدم مجامعة السابق والمسبوق هو أن يوجد السابق ولا يوجد المسبوق والمسبوقية بالعدم هى معنى الحدوث .

وهذا البرهان يخالف قاعدة لافوازيه المعروفة إذ ثبوت الحركة التى لا تنفصل المادة عنها ولا هى عن المادة توجب حدوث المادة من العدم المحض ومذهبهم أى المسلمون المتكلمون فى النفس هو الاتفاق على خلودها وعدم فنائها بعد فناء الجسد وهى عندهم قوة من القوى المجهولة وهم يرون أن البدن شرط فى إفاضتها كما يرى ذلك أرسطو وليست موجودة قبل وجود البدن كما يذهب إليه أفلاطون.

---

(١) هذا وأمثاله يثبت حدوثها إفرادياً لا ما يسمونه نوعياً فلا ينافى أزليتها هيولياً. هـ . ن.



الموت هو الدخول إلى النور الأعظم

(هيجو)

المادة والروح عند الإفرنج

كان لفلسفة أرسطو المقام الأرفع عند الإفرنج وكان الفيلسوف ابن رشد الأندلسى نصيرها الكبير بشرحه تلك الفلسفة وبثها بين الإفرنج وكان لها سلطان عظيم فى نفوسهم إلى أن اكتشف غاليله سنة ١٦٠٩[1] دوران الأرض ووضع النظام الجديد فى الفلك وعند ذلك حدثت ثورة فى الأفكار وهيأتها لقبول مبادئ حديثة فى الفلسفة وفى خلال هذه الحركة الفكرية ظهر الفيلسوف باكون[2] ووضع صرحاً علمياً

---

(١) غاليله "Galilsé" من أعظم الفلكيين الإيطاليين. ولد فى مدينة (بيز) "Pise" وتوفى ضريراً (١٥٦٤ - ١٦٤٢) وقد اخترع فى (فونيز) "Venise" عام ١٦٠٩ أول مكبر تمكن من معرفة أحوال القمر بواسطته. فهو الذى اكتشف كيفية دوران الأرض حول الشمس كما تدور حولها غيرها من النجوم (والعوالم) الأخريات التى تتنعم من نورها. وقد ألف عام ١٦٣٢ مجلداً ضخماً أودع فيه جميع الأسرار التى اكتشفها. وهو مجلد لطيف شكره على تأليفه إياه كل فيلسوف وعالم.

(٢) فرانسو باكون "Français Bacon" هو فيلسوف إنجليزى عظيم كان زمن الملك (جاك الأول) "Jacques 1er" ولد فى لوندرة "Londres" وقد نجى الفلسفة من السقوط بكتابته مجلداً سماه "Novum Arganum" ولد وتوفى عام ١٥٦١ - ١٦٢٦ .

حديثاً أساسه الاختبار والتجربة وبذلك تزعزعت أركان فلسفة أرسطو وأخذ ظلها يتقلص شيئا فشيئا وذهب من فلسفته ما لم يكن مقترناً بالبرهان الساطع وبقى الصحيح حسب ناموس الارتقاء والنشوء.

والفلسفة الحديثة كالقديمة تعتبر المادة مركبة من جواهر فرده فى نهاية الصغر تسمى (أتوم) والعناصر فى الفلسفة الحديثة عددها يربو عن (٧٠) عنصراً بعد أن كانت عند القدماء أربعة فالكون عند عامة الطبيعيين مركب من مادة قابلة للوزن ومن قوة تحرك تلك المادة وهى غير قابلة للوزن وهى على أشكالها (كهرباء) (نور) (حرارة) حركات فى الجواهر الفردة تنتقل بواسطة سائل لطيف غير قابل للوزن تسبح فيه الجواهر الفردة ويسمى اثيراً وكل واحد من هذه الأمور الثلاثة مستقل فى خصائصه عن الآخرين إذ لا علاقة ظاهرية بين القابلة للوزن وغير القابلة له والكمية المحدودة من المادة فى العالم لا يعتريها عندهم تغير زيادة ونقصاناً وعلى هذا الأساس بنى لافوزيه قاعدته المعروفة أن لا شيء يخلق ولا شيء يعدم فشرحها أنه إذا أحرقت قطعة ورق تحولت إلى مادة سوداء تختلف بخصائصها عن مادة الورق لأن الورقة انحلت إلى أطوارها الأصلية (كربون) (Carbone) (هيدروجين) (Hydrogene) أوكسجين (Oxygene) وغير ذلك فاختلف

تركيبها فكربونها مثلا اتحد بعضه بأوكسجين الهواء فتحول إلى حامض كربونيك (Acide Carbonique) وهو من قسم الغاز واتحد هيدروجينها أيضاً فتحول إلى ماء بصورة بخار وبقى قسم من الكربون لم يتحد بالأوكسجين وهو المادة السوداء ففى المثل تغير شكل الورقة بانحلالها ولكن الجواهر الفرده الأصلية التى تركبت منها الورقة لا تزال موجودة بتمامها وإن تغير شكلها وبعدما عرفوا استحالة المركبات بعضها إلى بعض اكتشفوا هذه الحقيقة فى القوة أيضاً فأبانوا أن القوى يستحيل بعضها إلى بعض فالحركة تستحيل إلى الحرارة وهذه إلى ضوء ومن ثم تتحول إلى كهرباء ورأى الطبيعيون أن بعض المواد تشترك بخصائصها بين المادة والأثير ويجعل الهواء موصلا للكهربائية وتخرق المواد الصلبة وتقبل تأثير المغناطيس وهى أمور غريبة على قواعد العلوم الطبيعية ومن ثم أخذوا فى البحث عن كشف هذا السر الغامض فوصلت أفكارهم إلى بعض نظريات أصيب بنقد وردّ ثم قام الدكتور جوستاف لوبون[1] البحاثة الإفرنسى الشهير فأبان أن القاعدة القديمة أن المادة لا تفنى وأنها جامدة لا تصدر منها إلا القوة التى اكتسبتها من قبل ليست فى طرف الإصابة والاختبار المستند إلى التجربة يدل على أن المادة مصدر هائل للقوة المسماة «بالقوة الكامنة فى الذرات» وتلك القوة قابلة للانتشار بذاتها

---

(١) هو الفيلسوف البحاثة الشهير مؤلف كتاب جوامع الكلم وسر تطور الأمم.

وأغلب قوات الكون وعلى الأخص الكهربائية وحرارة الشمس آتية من تلك القوة الكامنة فى الذرات والتى تنتشر فى تحلل المادة القوة والمادة صورتان لشيء واحد فالمادة صورة من صور القوة الكامنة فى الذرات وهى أكثر استقراراً والحرارة والضوء والكهربائية وما هو من نوع ذلك صورة ثانية لتلك القوة ولكنها أقل استقراراً ففصل الذرات بعضها عن بعض أو بعبارة أخرى إفقاد المادة ماديتها عبارة عن تحويل صورتها المستقرة إلى صورها غير المستقرة المسماة بالكهربائية أو ضوء أو حرارة أو غير ذلك. ولما كان الضوء والكهربائية وأكثر القوى المعروفة متولدة من تحول المادة صح أن الجسم متى تشعع فقد جزءاً من جرمه بمجرد هذا التشعع فإذا استطاع أن يشعع قوته كلها تفانى بتمامه فى الأثير.

فراديوم[1] أسرع المواد انحلالا يرسل ذراته بسرعة تقرب من سرعة النور (٠٠٠ / ٢٠٠) كيلو متراً فى كل ثانية فنصف الجرام منه بعد (١٥٠٠) سنة يتحول تحويلا تامّاً وبعد (١٠٠٠٠) سنة لا يبقى منه إلا جزء من مائة فإذا تتابع هذا الانتشار العظيم ولو بعد ملايين من السنين انقلب إلى قوة

---

(١) راديوم (Radium) هو جنس معدنى اكتشفه : بيمون كورى، وامرأته السيدة كورى (Bémant et Mme. Curie) وقد وجداه فى ابيش رانس (Béchurance) . وللراديوم الذى اكتشف عام ١٨٩٤ منافع جمة لتزييد إنارة الكهرباء وللآلات المصورة إلخ.

مجهولة فالقوة وإن لم يظهر سرها غير منفصلة عن المادة كامنة فيها ولا أثنية بينهما كما ظن بعض العلماء قديماً (هذا يقرب من آراء المتكلمين).

آراء الإفرنج فى الحياة

أهم آراء الإفرنج فى الحياة ثلاثة آراء كبرى أولها أن الحياة قوة من قوى وراء الطبيعة وهبة من العلة الأولى السرمدية وعلى هذا الرأى جماعة من أكابر علمائهم مصرحين بوجود العلة الأولى منهم الفيلسوف باستور[١] يقول هذا الفيلسوف (إن معرفة الله واحترامه يصلان إلى عقلى كما نصل نحن إلى الحقائق الفيزيكية).

سئل باستور كيف التوفيق بين اكتشافاتك العلمية والتعاليم الدينية فأجاب قائلا: بأن دروسى بدلاً من أن تزعزع اعتقادى جعلتنى فى إيمانى كالفلاح البريطانى (مثل إفرنسى يضرب به المثل).

ومنهم نيوتون[٢] الطبيعى الشهير الذى دحض آراء الماديين

---

(١) لويز باستور (Louis Pasteur) عالم فلكى إفرنسى ولد فى بلدة ضول (Dole) وهو معروف بخدماته العديدة للإنسانية وبمخترعاته العظيمة لتطبيب المرضى. ولد ومات ١٨٢٢ - ١٩١٢.

(٢) نيوتن (Newton) هو فيلسوف إنكليزى الأصل ولد فى ولستورب (Woolsthorpe) ١٦٤٢ - ١٧٢٧.

فى أربع رسائل كبرى وبعث بها إلى الدكتور تنبلى) يقول (إن هذا الانتظام فى الشمس والقمر والسيارات والمذنبات لايمكن أن يكون صانعه إلا موجود قادر على كل شىء وهم ينكرون تولد الحى من غير الحى فالحى عندهم لا يتولد إلا من الحى.

ومنهم باسكال يقول فى كتابه (الأفكار) ليس هذا العالم المرئى كله إلا أثراً حفيفاً يكاد لا يرى فى حضن الطبيعة الواسع.

وأنه كرة لا نهائية مركزها فى كل مكان وليس أطارها فى أى مكان يصل تصورنا بتلك الفكرة وذلك أكبر آية تدل على قدرة الله على كل شىء[1].

ومنهم ماليرانش[2] الفرنسى فإنه قسم الكائنات إلى أربعة أنواع فالنوع الأعلى هو الله المحيط بكل شىء.

---

(١) بليز باسكال (Blaise Pascal) هو فيلسوف وفلكى إفرنسى عظيم ولد فى كليرمون (Clerment) ولقد كان ماهراً بعلم الحساب فتوصل لاختراع آلة كاتبة مخصصة للحساب. ففى أحد الأيام حدث له حادث عند قنطرة نويي (Pont de Neuilly) دعاه يترك الفلسفة والاختراعات جانباً، وينزوى إلى العبادة ولذلك قَلَّ مع كل أسف النفع الذى كان يجتنى من وراء لمبيز باسكال!... وقد أصبح راهباً ديناً لا يتناسى العبادة ولو طرفة عين. وقد توفي قبل أن يتمم كتاباً دينيّاً كان قد ابتدأ بتدوينه، وهو تحت عنوان (تأملات) (Pensées) ولد وتوفى عام ١٦٢٣ - ١٦٦٢ . ولباسكال مثال على الإنسان يقول به: «ما المرء إلا قصبة من القصبات العادية، ألا أنه قصبة مفكرة».

(٢) ولد ماليرانش سنة ١٦٣٨م وتوفى سنة ١٧١٥ .

ومنهم هارفي مستكشف دوران الدم فى البدن قال ما شرحت حيواناً إلا رأيت فيه شيئاً جديداً وأدلة جديدة على العناية الإلهية.

ومهم الأستاذ جوليه فإنه استنتج في عجائب مشاهداته فى عالم الحشرات وجود قوة عالية إلهية.

ومنهم هكسلى يعترف فى كتابه داروينا بأنه يستحيل نقض الألوهية بحسب مذهب الارتقاء.

ويقول فى مقال آخر له إن من ينكر وجود الله كما تصوره (سبينبورا) لأحمق ويعترف أخيراً بالقوة الفاعلة.

وثانيها ما يقول به (هيرمان ابيرهارد ريخير)[1]

إن الفراغ الذى نراه مملوءا بالجراثيم الصور الحية كالجواهر الفردة التى تتكون منها المادة الصماء كلاهما فى تجدد مستمر لا يتولاهما العدم فالحياة على هذا الرأى ناشئة من الخلية.

ثالثها رأى القائلين بالتولد الذاتي وبهذا الرأى الدكتور باستيان من انكلترا والأستاذ هيكل[2] من ألمانيا فالحياة على مذهبهم من غير الحى فعليه لا تكون أزلية.

---

(١) هيرمان ابيرهارد ريختر (Hermann Rickter) الملقب (جان بول) (Jean Paul) هو كاتب ألماني. ولد وتوفى عام ١٧٦٣ - ١٨٢٥ .

(٢) (Hegel) فيلسوف بحاثة ألماني شهير ولد سنة ١٧٧٠ - ١٨٣١ .

(أما النفس الناطقة)

التى هى عند الروحيين مصدر القوى العقلية فهى عند الماديين ناشئة عن أعمال دماغية فالدماغ مصدر القوى العقلية وهم ينكرون تجردها بالمعنى الذى يثبته الروحيون. شرحاً وإيضاحاً لمذهبهم نورد مثالا لكيفية فعل الدماغ إذا وصل أثر الاهتزاز الأثيرى من المبصر إلى شبكة العين يحدث فى العصب النظرى اهتزازاً ويمتد هذا الاهتزاز الأثيرى إلى الطبقة المستقرة فى محل مخصوص من الدماغ ويصل إلى خلية حساسة من الخلايا الدماغية وهنا تأخذ هذه الخلية فى إحالة هذا الأثر إلى إحساس بصرى وكذلك سائر الأعمال الدماغية من الحواس الظاهرية والباطنية. فمجموع الأفعال الدماغية الناشئة عن الاهتزازات فى الأثير والأعصاب وانتباه الخلايا بحركتها الموجودة فى المادة الدماغية هو النفس، فعليه تكون هذه الأفعال ناشئة من القوة الكامنة فى المادة وإفراغ المادة تلك القوة الكامنة فى ذاتها، وخلاصة الرأى أن العقل حركة فى ألياف الدماغ الدقيقة.

إن ذكر الفيلسوف نصير الدين الطوسى فى ضمن رسالته بعض آثار الحواس الظاهرية والباطنية وإشارته إلى ارتسام الصور فى الدماغ دعانا أن نذكر شيئاً من تركيب الدماغ وأعمال حويصلاته بما أثبته علماء العصر استناداً إلى الاختبار الصحيح

والاكتشاف الصريح لتكون المقدمة بذلك وافية للغرض وموضحة لأبحاث الرسالة والله تعالى ولى التوفيق.

(الدماغ)

وهو من أهم المراكز العصبية فتتكوّن من مادة نخاعية تشغل الجمجمة ويقدرون زنته تقريباً فى الإنسان نحو (١٣٠٠) جرام وهو يتألف من عدة أجزاء أهمها أربعة:

(١) المخ وهو يشغل الجزء العلوى والمقدم من الجمجمة ويبلغ ثقله نحو تسعة أعشار ثقل الدماغ كله.
(٢) المخيخ مركزه فى أسفل المخ من الجهة الخلفية.
(٣) القنطرة وهى حزام عصبى عريض يلتف حول النخاع المستطيل ويصل جزء المخيخ الأيمن بالجزء الأيسر منه.
(٤) النخاع المستطيل وهو الوصلة بين الدماغ والنخاع الشوكى.

(المخ)

يتكون من جوهرين مميزين أحدهما لبى أبيض كثيف وهو الجوهر الليفى العصبى الذى يتكون من الجزء الأكبر من الدماغ ويتكون من جانب عظيم من المراكز العصبية وهو الجزء الرئيسى من الأعصاب التى تصل المراكز الدماغية بالأنسجة والثانى سطحى رقيق سنجابى اللون مائل إلى الحمرة وهو

الجوهر الحويصلى وفيه مراكز الحس وقوى العقل كالفكر والإرادة وفيه تضاريس كثيرة تعرف بالتلافيف المخية وللتلافيف المخية أهمية كبرى فى القوى العقلية والأعمال العصبية.

(المخيخ)

يتألف من ثلاثة أجزاء: اثنان منها متساويان فى الجانبين وواحد منها أصغر من كل منهما وهو كالمخ يتكون من مادة سنجابية ظاهرة وأخرى بيضاء باطنة والمادة الأولى تتفرع بين أجزاء المادة الثانية ووظيفة المخيخ هى تنظيم الحركات الجثمانية وترتيبها ولا شأن له فى نفس الحركات فإنها من فعل المخ.

(النخاع المستطيل)

هو كتلة عصبية تربط الدماغ بالنخاع الشوكى ويتألف من مادتين أحديهما بيضاء ظاهرية والأخرى سنجابية باطنية عكس المخ ويتقابل فيه كثير من أعصاب النخاع الشوكى الواردة إلى الدماغ ومتى وصلته هذه الأعصاب انعكس اتجاهها. فالأعصاب الآتية من الجهة اليمنى فى الجسم تذهب إلى جهة نصف كرة المخ الأيسر والأعصاب الآتية من الجهة اليسرى تذهب إلى نصف كرة المخ الأيمن وهو مركز من مراكز الأعمال المنعكسة وواسطة وحيدة بين أعصاب النخاع الشوكى والمخ والمخيخ وتنقل التأثيرات إلى الدماغ والحبل الشوكى بواسطة الأعصاب وهى خيوط فى غاية الدقة وحبال اتصال تصل

المراكز العصبية بعضها ببعض وتتوزع فى أنحاء الجسم المختلفة فتحمل القوة من المركز إلى أنحاء الجسم وكذلك تنقل التأثيرات منها إلى المركز ووظيفتها مزدوجة وفيها نوعان من الألياف الأول : الألياف الموردة وهى أعصاب الحس التى تنقل التأثيرات من المحيط إلى المركز والثانى : المصدرة وهى الأعصاب التى تنقل التأثيرات من المركز إلى المحيط وهى فى عملها هذا لا قوة لها فى توليد المجرى العصبى بل لابد لها من منبه لكى تقوم بوظيفتها فأعصاب الحس تتنبه عادة بواسطة الأجسام الخارجية التى تفعل بأطرافها . وأعصاب المركز تتنبه بواسطة الإرادة أو قوة أخرى تتولد فى المراكز العصبية، فعليه الحويصلات الدماغية لا تدخل فى العمل إلا إذا نبهتها قوة من الخارج ولكل منها مجال سعته بنسبة عدد الألياف العصبية التى تصلها بأعضاء الجسم وتصلها بعضها ببعض.

(فى الحواس الظاهرية والباطنية)

زعم حكماء الإسلام وفلاسفة اليونان أن قوى الحواس الظاهرية مودوعة فى نفس الآلات المختصة بها فالقوة الباصرة مودوعة فى العين والسامعة مودوعة فى الأذن وكذلك القوى الثلاث الأخر من دون أن يكون للمخ الدماغى وحويصلاته والألياف العصبية التى تربط المراكز بعضها ببعض مدخلية فى فعلها ذكر ذلك ابن سينا وأرسطو وغيرهما فى مؤلفاتهم ولما

بزغ فجر العلم فى القرون الأخيرة ظهر علم التشريح بمظهر جلى جديد وانضمت إليه التجارب الطبية حصل للعلماء معارف متقنة فاجتماع العلمين أصبح ناتجاً عن علم يعرف بالعلم (البسكولوجى) (Byscologie) (الفسيولوجى) (Physiologie) أو الفلسفة النفسية المبنية على معرفة الوظائف العضوية وبدأ بهذا المظهر الجديد من عهد (بروكا)[1] الذى اكتشف مركز النطق من الدماغ وأخذت الاكتشافات بعده يتبع بعضها بعضاً والعُقد تنحل واحدة بعد الأخرى فعرفت حدود الدماغ ووظائف كل نقطة وبظهور هذا الأساس الجديد عرف علماء العصر أن فعل الحواس ظاهرية كانت أم باطنية إنما ينشأ من فعل الحويصلات الدماغية والتلافيف الموجودة فيها والألياف العصبية التى تربط المراكز بعضها ببعض.

(فى كيفية حصول المدركات)

وكيفية حصول المدركات وانطباع رسومها فى الدماغ هو أن الدماغ فى أول أدواره عديم الاكتراث بالمؤثرات الخارجية لضعف الجوهر السنجابى فيه فكلما يتقدم الإنسان فى طى مراحل الحياة وتتسع دائرة مشهوداته تأخذ حويصلات الحس

---

(١) بول بروكا (Paul Broca) جراح افرنسى ماهر ولد فى سينت - فوى - لا غراند، (Sainte - Fay - la-grande) وهو أحد أعضاء المجمع الطبى وقد أنشأ مدرسة طبية عظمى ولد وتوفى عام ١٨٢٤ - ١٨٨٠ .

والحركة بالنمو ويشرع بالتدريب على العمل بتثقيف ذاتى فيأخذ بالإدراك شيئاً فشيئاً أى يصبح بنائه مستعداً لقبول صور المدركات التى ترد إليه من الخارج حتى إذا كمل بناؤه ووصل إلى درجة التكوين المادى يصبح كصفحة المرآة تنعكس فيها الصور فإذا أثر فيه مؤثر تناول رسمه وحفظه نسيجه، وبيان ذلك أن تموج المؤثرات الخارجية يقع على الحواس الخمس فينتقل بحبالها العصبية إلى الدماغ فينتهى فيه إلى خلية مخية حساسة فهنا تأخذ هذه الخلية بإحالة الأثر الوارد إلى إحساس خاص بكيفية وقف العلم دون كشف حجابها، فما ينقل من العصب البصرى يتحول إلى إحساس بصرى وما ينقل من العصب السمعى يتحول إلى إحساس سمعى، وعلى هذا النسق فعل الحواس الأُخر، وهذا الفعل أى فعل الحواس يحدث من التموج وهو نوع من التموج فما ينقل من العين يتحول إلى تموج بصرى وما ينقل من الأذن يتحول إلى تموج سمعى (الخ) ويقف إذ ذاك عمل التموج المنقول بالحبال العصبية فتكمن قوته فى الرسم المنقول عنه وتبقى فى الرسم على حالة من البطء والكمون وتكون على استعداد دائم لاسترجاع قوتها بتأثير محسوسات جديدة خارجية مباشرة أو غير مباشرة وعلى ذلك يكون فى الطبقة السنجابية من الرسوم بقدر ما يرد إليها من التأثيرات وهى رسوم لمس وسمع وبصر وشم وذوق.

ولا تقتصر الحويصلات على حفظ رسوم الحس بل تخزن أيضاً رسم الحركة التى تحدث من التموجات الصادرة من حركة العضلات والمفاصل والأطراف والمشى والكتابة وأمثالها بحيث أن كل الرسوم تكون نتيجة تموج خارجى محسوس يتحول إلى نوعين حاس ومحرك ويطلق على المخزن الذى يخزن فيه الرسم المفكرة أو الذاكرة فهما اسمان مترادفان يستعملان لمعنى واحد وهو تنبيه صور محفوظة فى الحويصلة الدماغية إذا انتبهت بفعل منبه خارجى جديد تحولت إلى قوة فاعلة وحصل ما يسمى تصوراً أى أن التصور هو انتباه من صور المفكرة كما يتضح ذلك فى المثال الآتى :

إذا أومض برق وعقبه رعد أثر البرق فى العين والرعد فى الأذن أى أن جهاز القبول البصرى يقبل التموجات الخارجية بواسطة العصب البصرى ويسجلها فى مفكرته أى فى حويصلة أو عدة حويصلات دماغية معينة ومخصصة لقبول هذا الأثر وجهاز القبول السمعى يقبل التموجات بوساطة العصب السمعى ويحفظها فى الحويصلات المخصصة لقبوله فإذا طرق الأذن فجأة هزيم رعد جديد فاهتزازه يوقظ مباشرة الصور السمعية وهذا هو تصور الرعد، وغير مباشرة وهو تصور البرق فيحصل فى آن واحد انتباهان منفصلان لصورتين منفصلتين وتصوران متميزان هما الرعد والبرق فالتصور هنا

يتعلق بذكر واحد أى بصورة واحدة وليس بصور كثيرة والرعد والبرق لا ينكشفان إلا باهتزاز واحد خارجى محسوس وليس لهما إلا صورة واحدة وذكر واحد للرعد الصوت وللبرق النور.

أما ارتباط التصور السمعى بالتصور البصرى فناتج من ارتباط المركزين بالألياف العصبية التى تجعلهما يشتركان فى مجموع من الأعمال.

الذاكـــرة

بعد ما تصل التأثيرات الخارجية بواسطة الاهتزازات العصبية إلى الدماغ تؤخذ صورها فيه وترتسم فى حويصلاته ويحصل ذلك بسرعة وسهولة أو ببطء وصعوبة ويكون الرسم جليّاً واضحاً أو ضعيفاً مشوشاً ويثبت مدة طويلة أو يكون سريع الزوال كل ذلك بالنسبة إلى بناء الحويصلات الخاص واستعدادها الطبيعى لأنها إذا كانت ضعيفة البناء قليلة النمو أخذت الرسوم ببطء وكانت قليلة الوضوح والدوام والحاصل من أخذ الرسوم الدماغية ومن تنبيهها وعودها إلى الظهور هو ما يسمى بالذاكرة وعليه تكون الذاكرة مجموع الحاصل من رسوم متعددة ومن استعدادها فهى ليست وظيفة واحدة دماغية مستقلة لها محل مخصوص محدود كما زعمه القدماء

وفلاسفة الإسلام كابن سينا وابن رشد الأندلسى[1] وغيرهما وإنما أطلق عليها اسم المفرد لتحديد عمل مشترك بين مجموع من الذاكرات ولا يمكن أن يوجد ذاكرة واحدة لأنه لا يوجد حاصل واحد لتصور التذكارات المتعددة واستعدادها بل ذاكرات كثيرة تتفرق حدودها فى حويصلات السمع والبصر والشم والذوق واللمس ويصح أن يخصص اسم لكل منها كالسمعية والبصرية إلخ..

---

(١) Averroes ١١٢٦ - ١١٩٨ .

هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد القرطبى من أكابر فلاسفة الإسلام شارح فلسفة أرسطو بلغ أوج مجده على عهد يعقوب المنصور بالله ووشى به حساده بأنه يعتنق الفلسفة المخالفة للدين الإسلامى ويؤله الزهرة فعقد المنصور مجلساً من مشاهير قرطبة وحكم عليه بالنفى فى مدينة (لوسانيا) غير أنه رجع بحكم المنصور وأكرمه.

وله مؤلفات كثيرة ترجمها الإفرنج من العربية إلى اللغات الغربية وبحث الفيلسوف. (أرنست رنان) فى فلسفة وتاريخ حياته فى كتابه الذى ترجم إلى العربية.



كتاب بقاء النفس - للطوسى

قال علامة العالم نصير الملة والدين رسم المولى العالم الفاضل مؤيد الدولة والدين قدوة المهندسين أن أكتب شيئاً أفاده الحكماء المحققون فى بقاء النفس الإنسانية بعد بوار البدن فلم أجد بداً من امتثال مرسومه وإن كنت قليل البضاعة فى هذه الصناعة وكان ما يفرض من غيائب العلوم فهو فى جنب علومه (علمه) الدقيقة قليل القدر صغير البنيان وبدأت بمقدمات يبتنى عليها المطلوب وسألت من الله العصمة فى المقال والتوفيق بصوالح الأعمال إنه ملهم العقل وولى الخير من المبدأ وإليه المعاد.

أقول الموجودات تنقسم إلى ما له وضع وإلى ما لا وضع له البتة ونعنى بالوضع الكون فى جهة من الجهات أو حيز من الأحياز بحيث يمكن أن يشار إلى الموصوف به إشارة حسية فجميع المحسوسات كالألوان والأصوات والروائح والطعوم والملموسات وكل ما يتعلق بالمحسوسات من محالها وأمكنتها ومقاديرها والأشياء الحالة فيها وما يجرى مجريها جوهراً كان

أم عرضاً فهى ذوات أوضاع وما عدا ذلك من الأمور الكلية المعقولة محسوسة كانت أشخاصها أو غير محسوسة والجزئيات المفارقة للمواد كالبارى تعالى أو العقول أو النفوس وما يعرض لها أو يحل فيها فهى مما لا وضع له وكل مدرك لشىء من الموجودات بتقديريه مثال لذلك الموجود فإن أدرك بنفسه رسم ذلك فى نفسه وإذا أدرك بالآلة ارتسم فى تلك الآلة مثال الإدراك بالآلة الإبصار والإحساس بالسمع وساير الإدراكات الحسية ومثال الإدراك بغير الآلة إدراك الإنسان نفسه وذاته سبب أعنى بدنه الذى يدركه بحواسه وإذا أحس الحس بشىء ارتسم فى الخيال شج لذلك الشىء أو رسم ما يلاحظه فى النوم واليقظة مع غيبة ذلك المحسوس مهما أراد وإنما يدرك ذلك الشج أو الرسم من غير ملاحظة لوضعه إن كان من ذوات الأوضاع[1] بخلاف الحس فإن الحس يدركه مع وضعه ويتوهم مع ذلك منه معانى غير محسوسة كالملائمة والمنافرة والاستيناس والاستيحاش والصداقة والعداوة وغير ذلك وهى أمور جزئية تتعلق بالجزيئات محسوسة كانت أو غير محسوسة وهذا التخيل والتوهم أيضا لكون للنفس بالات دماغية ويسمى بالإحساسات الباطنة.

* * *

(١) هذه الخاصية أى إدراك الخيال الأمور من غير احتياج إلى الوضع هى التى تميز الحواس الباطنية عن الظاهرية.

الشـرح: اعلم أن آخر ما وصل إليه العلم فى مسألة النفس وتجردها هو بيان آثارها الظاهرة وخواصها اللازمة التى يستدل بها على وجود جوهر غير مادى هو مصدر هذه القوى الظاهرة كما يستدل على وجود المؤثر بأثره نظير استكشاف الجاذبية وسائر القوى الفيزيكية عن ظواهر الطبيعة من دون أن تنكشف حقيقة تلك القوى وهذا شأن العقل فى حكمه بوجود المؤثر عند درك الأثر حكماً جزمياً وهذا سبيل اتخذته الفلسفة الروحية فى إزاحة النقاب عن وجه هذا السر الغامض منذ العصر القديم ولن تبلغ إلى مرتبة فوق هذه المرتبة ولو بذلت كل جهدها (يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) ولذلك نرى أن غاية ما أتى به الفيلسوف فى الرسالة أن أبان آثاراً خاصة للنفس لا يصح ظهورها إلا من جوهر غير مادى تظهر منه هذه الآثار ومهد عدة مقدمات ينبنى عليها إثبات المقصود ويحكم بصحتها العقل وتقضى على صدقها البديهة من غير ترو وشك مفاد المقدمة الأولى هو أن الموجودات بأسرها تنقسم إلى ما له وضع وإلى ما لا وضع له والأول عبارة عن كون الشىء فى جهة من الجهات أو في حيز من الأحياز بحيث يقع الموصوف به تحت الإشارة الحسية ويدخل تحت هذا القسم المادة وجميع القوى الفيزيكية حيث يقع جميعها تحت درك الحواس الظاهرية لأنها لا تنفصل عن المادة

على النظرية الحديثة والمادة ذات وضع والحال فيها يكون أيضاً ذا وضع على ما يأتى فى المقدمة الثانية فجميع ما تدركه الحواس الظاهرية كالألوان والأصوات والروائح والطعوم والملموسات وكل ما يتعلق بها من محالها وأمكنتها ومقاديرها والأشياء الحالة فيها وما يجرى مجراها جوهراً كان أو عرضا فهى ذوات أوضاع وما عدا ذلك من الأمور الكلية المعقولة التى لا تقع بنفسها تحت فعل الحواس الظاهرية وإن وقعت أشخاصها تحت الحس ولا يمكن أن يشار إليها بنفسها إشارة حسية كالإنسان الكلى الذى لا يمكن أن يشار إليه إشارة حسية وإن صحت الإشارة إلى أفراده المتشخصين وكذلك الجزئيات المفارقة للمواد كالبارى تعالى عز اسمه حيث أنه جزى يمتنع صدقه على الكثيرين منزه من أن يكون من سنخ المادة والماديات أو العقول والنفوس وما يعرض لها أو يحل فيها فهى مما لا وضع له ولا يقع تحت درك الحواس الظاهرية. ويحصل الإدراك بنوعين بواسطة الآلة وبلا وساطة الآلة وعند إدراك المدرك الموجودات بأسرها وبتقديريه يحدث عند المدرك مثال للموجود المدرك فإن أدرك بواسطة الآلة ارتسم المثال فى الآلة وإن أدرك بنفسه ارتسم فى النفس مثل الفيلسوف للأول الإحساس بالسمع والإبصار ناظراً به إلى رأى القدماء أى كون القوة مودوعة فى نفس الآلة ولكن لا يختل بذلك أساس البرهان بعد أن تفرض الآلة نفس

الخلية المخية لا الأذن والعين فإن الغاية تقسيم الإدراك بنوعين بالآلة سواء أكانت خلية مخية أم الأذن والعين وبغير الآلة، ومثل للثانى أى الإدراك بغير الآلة إدراك الإنسان نفسه فإن هذا القسم من الإدراك ليس بواسطة الآلة وإن كان إحساس البدن سبب حدوث هذا الإدراك.

* * *

المتن: وإذا تقرر ذلك فنقول ارتسام الشيء فى غيره أو الحلول فيه قد يكون على سبيل السريان كارتسام الصورة فى سطح المرآة والسواد فى الجسم وقد لا يكون كذلك كحلول النقطة فى الخط والخط فى السطح والسطح فى الجسم فإن النقطة لا تسرى فى طول الخط ولا الخط فى عرض السطح ولا السطح فى عمق الجسم وإذا ارتسم شيء فى شيء أو حل شيء فى شيء على سبيل السريان بحيث لا يكون بين الحال والمحل امتياز فى الحس كانت الإشارة الحسية إلى كل واحد منهما هى الإشارة إلى الآخر إذ لا يميز بينهما حساً فكل ما ارتسم أو حل فى ذى وضع أو ارتسم أو حل فيه ذو وضع فهو ذو وضع وأيضا كل ذى وضع ارتسم أو حل فى شيء أو حل فيه شيء فذلك الشيء أيضا ذو وضع[1].

---

(١) العبارة لعلها زائدة.

(والنسخة الأصلية كذلك والعبارة أى قوله فكل ذو وضع الخ.

الشرح: مفاد هذا الكلام أن ارتسام الشىء فى غيره أو الحلول فيه قد يكون على سبيل السريان كارتسام الصورة فى سطح[١] المرآة والسواد فى الجسد فإن ارتسامها على سبيل[٢] السريان وقد لا يكون على سبيل السريان كحلول النقطة فى الخط والخط فى السطح والسطح فى الجسم فإن النقطة لا سريان لها فى طول الخط ولا للخط فى السطح ولا للسطح فى عمق الجسم ثم إنه إذا ارتسم شىء فى شىء أو حل شىء فى شىء على سبيل السريان بحيث ارتفع الميز بين الحال والمحل كانت الإشارة[٣] إلى كل واحد منهما هى الإشارة إلى الآخر فإن التغاير إنما يحصل فى الأشياء بسبب الامتياز الخاص بينها والامتياز إذا ارتفع ينتفى التغاير وإذا تمهد هذا نقول إذا كان الحال فى الشىء أو المحل الذى حل فيه الشىء ذا وضع يكون الحال أو المحل أيضاً ذا وضع فإنه لا يعقل أن يحل الشىء الذى لا

(١) قد يدعى أن الصورة فى المرآة نور محدود فيقبل الإشارة الحاصرة بخلاف ما فى خارج المرآة فإنه نور غير محدود ويأبى الإشارة الحاصرة هـ. ن

(٢) وقد يدعى مثل ذلك فى الحياة بل وفى الروح ويدعى أنها تأبى الإشارة الحاصرة هـ. ن

(٣) الإشارة الحاصرة من لوازم ذوات الأوضاع وأما الإشارة غير الحاصرة كالإشارة إلى الهواء المبثوث فى الفضاء فلا يحصر المشار إليه فى جهة تخصه ولا تدل على أن المشار إليه ذو وضع هـ. ن

يمكن أن يشار إليه بوجه من الوجوه إشارة حسية أن يكون حالا في شيء أو محلا لشيء فإذا تحقق صفة الوضع في جانب الحال فلا بد من تحققه في جانب المحل وكذلك إذا تحققت في جانب فلا بد من تحققه في جانب المحل فلا بد من تحققه في جانب الحال إذا لا صلة بين ما لا يمكن وقوعه تحت درك الحواس والإشارة الحسية بوجه من الوجوه وبين ما يمكن وقوعه تحت درك الحواس والإشارة وبعبارة أخرى أن غير ذي الوضع من سنخ المجرد وذو الوضع من سنخ المادي وكذلك إذا ارتسم ما لا وضع له في شيء فيستكشف أن المرتسم فيه أيضاً غير ذي وضع لأن ارتسام غير ذي الوضع في ذي الوضع غير معقول[1] فبذلك يظهر أن القوى الفيزيكية الحالة في ذرات المادة ذوات أوضاع لإمكان الإشارة الحسية إليها لكون محلها مادة ذات وضع لا سيما على النظرية الحديثة التي تجعل المادة صورة من صور القوة الكامنة في الذرات أكثر استقراراً فبناء عليها لا امتياز بين القوة والمادة ولا أثنينية فبذلك يظهر أنه لا يمكن أن تكون النفس من قسم القوى الفيزيكية وتلاعب تلك القوى ميكانيكا كما ينزع إليه المادي لأن بعض الآثار تدل على أنها ليست من قبيل ذوات الأوضاع.

* * *

(١) فيه تأملٌ على أن النور المنتشر وساير القوى المبثوثة تأبى الإشارة الحاصرة التي من لوازم ذوات الأوضاع هـ ن

المتـــن: لا يقال الصور الخيالية وما يجرى مجراها ليست بذوات أوضاع وهى ترتسم فى متخيلات الحيوانات التى هى ذوات أوضاع لأنا نقول هى من حيث ارتسامها فى ذوات الأوضاع لأن الإشارة إلى محالها إشارة إليها وإنما الخيال إذا أدركها انتزعها من أوضاعها التى كانت قبل الانتزاع معها وجدت لها وضعا آخر هو وضع الجزء من الدماغ الذى هو محل الخيال من حيث كونه فى ذلك الجزء ولفقدان أوضاعها المنتزعة منها يظن أن لا وضع لها ولا منافات بين كون الشىء ذا وضع وبين إدراك ذى وضع لا من حيث هو ذو وضع بل من حيث هو منتزع من وضعه الأول فإذن ثبت أن الصور الخيالية ذوات أوضاع من حيث ارتسامها فى الخيال وإن كان الخيال لا يدركها مع الأوضاع السابقة المفارقة لها.

* * *

الشـــرح: وشرح هذا الكلام بأسلوب أسهل هو أنه ربما لا يستقيم استحالة ارتسام ما لا وضع له فى ماله وضع إذا تصورنا ارتسام الصور الخيالية التى لا وضع لها حيث لا تقع تحت الإشارة الحسية بالحواس الظاهرية فى متخيلات الحيوانات التى هى من ذوات الأوضاع ولكن الحقيقة ترشدنا إلى أن الصور الخيالية من ذوات الأوضاع لأن تلك الصور متحدة فى الخارج مع ذى الصور، غاية الأمر أن القوة المتخيلة تنتزعها من

أوضاعها ولا شك أن الإشارة إلى محالها إشارة إلى تلك الصور الحالة فى محالها فيكون على ذلك من ذوات الأوضاع وإذا انتزعها الخيال فهى تنتقل فى محل القوة المتخيلة وهو جزء من الدماغ على رأى القدماء والحويصلات الخاصة بالحس على الرأى الحديث (فحيث). وجد لها وضع آخر أى الدماغ فلفقدان أوضاعها المنتزعة منها يظن بأن لا وضع لها غاية الأمر أن الأوضاع الأولية فقدت ووجدت لها أوضاع أخرى ففى الحالة الثانية هى أيضاً ذوات أوضاع.

* * *

المتن: إذا تقرر ذلك فنقول إن النفس الإنسانية العاقلة يرتسم فيها معقولات لا وضع لها فهى لا تكون ذات وضع.

* * *

الشرح: لأن غير ذى الوضع كالمعقولات التى هى غير منتزعة عن الصور الخارجية بل هى أمر أدركه العقل كتعقل احتياج الخلق المعلول إلى العلة الأولى الخالقة لا يمكن أن يرتسم فى ماله وضع واقع تحت درك حاسة واحدة أو أكثر.

وبعبارة أخرى لا يتصور أن يتعقل الجسم بصفته الجسمية أو ما يدركه الحواس من ذوات الأوضاع معنى افتقار المعلول إلى العلة (فلا يكون جسما) لأن من خواص الجسم أن يدركه

الحواس وثبت أن ما يدركه الحواس لا يمكن أن يرتسم فيه المعقول لأنه يكون ذا وضع (ولا يكون حالة فى ذى وضع) لأن ما ارتسم أو حل فى ذى الوضع فهو أيضاً ذو وضع (ولا يكون صورة جسمانية) فهذا متفرع على السابق لأنه إذا لم يكن جسما فيلزم أن لا يكون صورة جسمانية (ولا عرضاً من شأنه أن يحل فى جسم) لأنها إذا كانت مستعدة للحلول على ذوات الأوضاع فتكون من ذوات الأوضاع بناء على المقدمة السالفة والفرض أنه ثبت أنها ليست من ذوات الأوضاع (ولا قوة بدنية) لأن القوى البدنية لا تصدر منها أفاعيل النفس المختصة بها المستحيلة صدورها عن الجسم.

* * *

المتن: (بل إنما تكون جوهراً قائماً بذاته مفارقاً للجسم والمادة متعلقاً بالبدن تعلق تدبير لها ولتصرف منها يستعمله استعمال صانع لآلاته وتفيد البدن صورة بها تجعله شخصا من الأشخاص الإنسانية).

* * *

الشرح: ولما مهد الفيلسوف هذه المقدمات شرع بذكر البراهين التى هى مبلغ علم الفلاسفة والعلماء فى مسألة تجرد النفس وما هى كما أسلفناه إلا كشف الحقيقة عن ظهور آثارها الخاصة فذكر عدة براهين منها.

* * *

المتـــــن: (كيف لا وجميع القوى الجسمانية كالحواس الظاهرة والباطنة وغيرها تضعف بعد سن الوقوف وهى تقوى إذ يصير تعقلها أدق وأتم وأكمل) .

* * *

الشـــــرح: ذكرنا فى الأبحاث السالفة أن النظرية الحديثة تقول إن القوة غير منفصلة عن المادة وهى كامنة فى ذرات المادة تتبع فى نشاطها وضعفها على انحلال المادة وانتشار ذراتها فكلما فقدت المادة من ذراتها تفقد بمقدارها من قوتها الكامنة فلو كانت حقيقة النفس من تلاعب تلك القوى الموجودة فى الذرات كما يقول به المادى لكانت تابعة فى الضعف والنشاط للذرات التى تكوَّن منها البدن وحلَّت فيها القوة والأمر على ضد ذلك فإنا نرى النفس الناطقة الإنسانية تترقى فى درجات الكمال كلما يهبط البدن وقواه البدنية كالحواس الظاهرة والباطنة من مبلغ كمالها كما فى دور الشيخوخة والهرم ففى هذا الدور من العمر مثلا يقوى تعقل الإنسان ويتكمل إدراكه فبذلك يظهر أن النفس الناطقة ليست هى تلاعب القوى الكامنة فى ذرات البدن .

* * *

المتـــن: (وتلك لا تدرك أنفسها وهى تدرك نفسها وتلك لا تدرك ما يتعلق بها)

الشـــرح: وهذا برهان ثان لتجرد النفس ومفاده أنه تبين أن العلم والتعقل وأمثالهما من الأوصاف والعوارض الغنية عن المحل لا تقوم بالمحل إذ ثبت أن ما لا يحل فى ماله وضع فهو مما لا وضع له ولا يحتاج إلى محل يقوم به فمعروض التعقل أعنى النفس أيضاً لا يحتاج إلى المحل حيث إن عارضها بصفة كونه عارضا لا يحتاج إلى المحل فالمعروض أولى بعدم الاحتياج. أما بيان استغناء التعقل عن المحل فإن النفس تدرك ذاتها بذاتها وتدرك آلتها وتدرك إدراكها بذاتها وآلاتها كل ذلك بلا توسط الآلة يظهر أنها غنية عن المحل وبعبارة أخرى نقول ثبت أن الإدراك قوة أعلى من حركة الأعصاب وحركة الخلية وانتباهها وثبت أن القوة المدركة تدرك نفسها ومتعلقاتها من دون حركة فى العصب والخلية فلا يتصور أن يكون الشىء حالا ومحلاً بوحدته.

***

المتـــن: وأيضاً النفس ترتسم بالمعقولات الوحدانية التى لا يقبل الانقسام بوجه كالوحدة فكل مرتسم بمثل ذلك فهو غير قابل للقسمة الوضعية وإلا لانقسم المعقول الذى ارتسم فيه بانقسامه فإن كل مرتسم فى منقسم على سبيل الحلول السريانى فهو منقسم بانقسامه وكل جسم فهو قابل للقسمة

الوضعية فالنفس ليست بجسم ولا بقوة حالة فى الجسم بالحلول السريانى.

* * *

الشرح: وهذا برهان ثالث وهو أن عوارض النفس كالعلم بالعلة الموجدة للعالم وتعقل الحقائق البسيطة لا يقبل الانقسام بوجه كالوحدة الآبية عن الانقسام بوضعها وعدم قابلية العلم ونظائره من المعقولات الوحدانية للانقسام يدركه الوجدان بلا معونة البرهان فإذا عرض مثل هذا العارض على شىء أو ارتسم فيه فيستكشف أن المعروض أيضاً غير قابل للقسمة الوضعية حيث أن قابلية المعروض للقسمة يستلزم قابلية عارضة لها إذ كل مرتسم فى منقسم على سبيل الحلول السريانى فهو منقسم بانقسامه فإذا لم يكن قابلاً للقسمة فهو فاقد لأخص خواص الجسم وهو الانقسام والتجزئ فيظهر من فقد هذه الخاصة أنها ليست بجسم ولا بقوة حاله فى الجسم بالحلول السريانى لأن نفس الحلول السريانى يستلزم القسمة فإذا ساعدنا الدليل أن عارض النفس كالعلم وتعقل الحقائق البسيطة غير قابل للانقسام يمكننا أن نجيب عما يعترض به بعض منكرى تجرد النفس أن الشعور خصيص المادة والمادة تتكمل شيئاً فشيئاً بتكامل بطئ بأن نقول إن المادة قابلة التقسيم إلى الهيآت بل هى مؤلفة من هيآت صغيرة إذا نعزى لكل منها علما وشعوراً فيكون للخلية من الإحساسات بقدر ما فيها من الهيآت.

وبتعبير آخر أن النفس الإنسانية ترتسم فيها معلومات وتشعر بها وهى غير قابلة للانقسام بالضرورة فلا يستقيم قول المادى من كون الشعور خصيصاً للمادة إذ المعلوم لا يقبل القسمة فيظهر أنها شىء وراء المادة لكون المادة مؤلفة من الهيآت ومقسومة بها فكيف يمكن انقسام نفسها وعدم انقسام خاصتها الحالة فيها ولا يحصل من اجتماع شعورات متعددة شعور كبير واحد ولا شعور بعضها بعضاً وكذا لا يتصور أن يكون شعور واحد مركزاً جاذباً لشعورات متعددة.

* * *

المتن: لا يقال الجسم يوصف بأنه واحد فهو مع قبوله القسمة محل للوحدة فلمَ لا يجوز أن يكون النفس مع كونها مرتسمة بمعقولات وحدانية قابلة للقسمة لأنا نقول الجسم لا يرتسم فيه الوحدة إنما يصفه العقل بالوحدة كما يصفه بالوجود أو الجنسية وذلك لأن الوحدة أمر معقول ليس مما يحل فى محل حلول الأعراض الموجود خارج العقل وللعقل أن يصف كل ما يدركه إما بها أو بما يقابلها وهو الكثرة والتعدد.

* * *

الشرح: غرض الفيلسوف من بيان هذا التوهم السفسطى ليسد سبيل الاعتراض من كل جهة ولا يدع لأحد شكّاً فى

بيان الحقيقة ولا ريبا والعقل والحقيقة توضحان فساده ولذلك ضربنا صفحاً عن شرحه.

* * *

المتـــن: ثم نقول لا يجوز أن يكون البدن ولا غيره من الأجسام ولا القوى الحالة فى الأجسام علة توجد النفس وذلك لأن كل ذى وضع لا يجوز أن يؤثر إلا فيما يكون منه على وضع كالمفارق (المقارن) والمجاور والمحاذى أو بينه وبين (وبينه ذلك) علاقة لا علاقة بين البدن والنفس قبل وجود النفس ولا بين ذى وضع آخر وبين ما لا وضع له كالنفس وما يجرى مجراها فإن ذلك مما هو واضح لبديهة العقل فإذن علة وجود النفس موجود مفارق غير ذى وضع دائم الوجود وإنما يكون وجود المزاج البدنى شرطاً فى فيضان النفس عن مبدعها لتدبر البدن على مذهب «أرسطو» ولتعلقها به إن كانت قبل البدن موجودة وذلك على مذهب «أفلاطون».

* * *

الشـــرح: غرض الفيلسوف بهذا الكلام هو بيان أن مفيض النفس وعلتها الموجدة هو الله سبحانه عز وجل.

وتقرير الدليل أن علة النفس لو كانت غير سبحانه إما يكون هى من ذوات الأوضاع أو من غير ذوات الأوضاع فعلى

الأول البديهة تقضى أن ذا لوضع لا يؤثر أى تأثير إلا إذا كان المتأثر على وضع منه كالمقارن والمحاذى والمجاور ولولا صلة خاصة بين المتأثر والمؤثر من ذوات الأوضاع سواء كانت من الأجسام أو من القوى الحالة فيها لم يحصل العلية والتأثير ولا علاقة بين البدن الذى له وضع خاص وبين النفس التى لا وضع لها على ما تقرر فى المقدمات السالفة والمستكشفة من آثارها الخاصة. وعلى الثانى أيضاً لا صلة بينها وبين ماهو من غير ذوات الأوضاع كالنفس وما يجرى مجراها إذ البديهة تشهد بأن النفوس ممتازة بعضها عن بعض ولا صلة بينها ثم إنه سبق فى الأبحاث الماضية أن «أفلاطون» يرى النفوس موجودة قبل وجود البدن و«أرسطو» يرى الأبدان شرطاً لفيضانها عن المبدع تعالى وعلى الرأى الأول وجود المزاج البدنى شرط لتعلق النفس به وعلى الرأى الثانى هو شرط لفيضان النفس عن المبدع تعالى إليه.

* * *

المتـــن: (وأيضا لا يجوز أن يكون البدن ولا مزاجه شرطاً فى بقاء النفس لأن النفس هى الحافظة والمبقية للبدن ومزاجه بتدبيرها وإيراد الغذاء عليه بدلا عما يتحلل منه فإن كان البدن أو المزاج شرطاً فى بقاء النفس لزم الدور).

* * *

الشـــرح: أى يتوقف بقاء النفس على وجود البدن إذ هو شرط فى بقائها على الفرض ويتوقف بقاء البدن على وجود النفس لأنها هى الحافظة والمبقية له بتدبير الغذاء عليه بدلا عما يتحلل.

* * *

المتـــن: (ولما فاضت النفس عن مبدعها على البدن أو تعلقت به على أى المذهبين كان لم يبق للبدن ولا لشىء مما يتعلق به تأثير عليته ولا تأثير شرطيته فى وجود النفس ولا فى بقائها فلا تضر النفس فقدان البدن أو قطع العلاقة بينه وبينها بوجه وتبقى النفس موجودة دائمة بدوام مبدعها ومفيضها لوجوب وجود المعلول مع وجود علته واستحالة انفكاكه عنه وهو المطلوب).

* * *

الشـــرح: كانت مباحث الرسالة ثلاثة أركان أولها إثبات تجرد النفس الناطقة والثانى إثبات أن مبدع النفس هو الله تعالى الثالث إثبات بقائها بعد بوار الجسد وهذا الكلام عنوان الأمر الثالث بدليل بسيط وبيانه أنه ثبت أن مفيض النفس للبدن هو الله تعالى عز شأنه فعلى المذهبين أى مذهب «أفلاطون» ومذهب «أرسطو» لم يبق للبدن ولا لشىء مما يتعلق به تأثير عليته وتأثير شرطيته لأن مفيضها هو الله تعالى

وكذلك لا يبقى له تأثير في بقاء النفس أيضا لأنه لم يكن علة في وجود النفس فليس علة في بقائها فلا يضر النفس فقدان البدن وقطع العلاقة بينه وبينها ولما كانت علتها علة سرمدية فالمعلول أيضا يبقى ببقاء علتها على الدوام لأن وجود العلة يستلزم وجود معلوله ويستحيل انفكاكه عنها.

* * *

المتـــن: (وبوجه آخر نقول كل أمر يكون في شيء من الأشياء بالقوة ثم خرج إلى الفعل وجب أن يكون ذلك الشيء الذي كان فيه ذلك الأمر باقيا عند خروج ذلك الأمر إلى الفعل حتى يصح الخروج من القوة إلى الفعل وإن انعدم ذلك الشيء عند خروج ذلك الأمر من القوة إلى الفعل لما كان الأمر الذي كان فيه بالقوة خارجاً منه إلى الفعل (ما غير[1] نطفة) (كما في نطفة) الإنسان فإن الإنسانية في مادتها بالقوة ولابد من وجود تلك المادة عند صيرورتها إنساناً بالفعل وإلا لما كان ذلك الإنسان من تلك النطفة وصورة النطفة لما كانت عند خروج الصورة الإنسانية إلى الفعل غير باقية لم تكن الصورة الإنسانية في تلك الصورة بالقوة بل امتنع جمعها في تلك المادة ولذلك لما خرجت هذه إلى الفعل في مادتها فنيت تلك

---

(١) كانت عبارة الأصل حسبما أثبتناه.

فيها وإذا تقررت هذه المقدمة فنقول لو جاز الفناء لكان الفناء فيها حال الوجود بالقوة وإذا خرج الفعل وجب أن تكون النفس مع فنائها موجودة فهذا خلف. إذاً ثبت أنه لا يجوز عليها الفناء).

تقرير الدليل أنه إذا كان في ذات شيء استعداد خروج أمر من القوة إلى الفعل كاستعداد نشوء الإنسان من النطفة ونمو الثمرة من الشجرة أو استعداد ظهور آثار الحواس الظاهرية والباطنية من الدماغ فلابد من بقاء هذا الأمر أى المحل حال خروج ذلك الأمر من القوة إلى الفعل ومن الاستعداد الصرف إلى الوجود وهذا مما لا ريب فيه ببديهة من العقل إذ لو لم يكن مادة النطفة أو الشجرة أو الدماغ باقية حين خروج ذلك الأمر من القوة والاستعداد إلى الفعل. لم يظهر الإنسان والثمرة وآثار الحواس في عالم الوجود وما كان من أجزاء المحل أو عوارضه تنعدم وتفنى عند خروج الأمر إلى الفعل يستكشف منه أن الشيء الخارج إلى الفعل لم يكن في ذلك الجزء والعارض كفناء صورة النطفة ومادة الثمرة الأصلية في نشوء الإنسان ونمو الثمرة بل امتنع جمع الصورتين في مادة واحدة فعليه لو كانت النفس الناطقة قابلة للفناء ليلزم بقائها حين خروج الفناء إلى الفعل، والفناء والبقاء ضدان لا يجتمعان في محل واحد وفي آن واحد.

الشـــرح؛ ولما مهد المقدمة ورتب عليه الدليل أخذ فى دفع الاعتراضين الذين ربما يتوجهان إليه فبين أولهما بقوله (« فإن قيل فعلى هذا لتقدير لا يكون الفناء جائزاً على موجود أصلا ») بتقريب أن الحس والاختبار يثبتان فناء كثير من الموجودات مع أن هذا الدليل شامل لها أيضاً إذ استعداد الفناء فى الموجودات الفانية إذاخرج إلى الفعل يلزم بقاء ذى الاستعداد بهذا الدليل فى حين سير الأمر من القوة إلى العقل والفناء والبقاء ضدان لا يجتمعان ! فدفعه بقوله : (قلنا الفناء جائز على كل موجود ممكن يكون حالا فى محل ويكون فى محله قوة انعدام ذلك الموجود عنه فإذا خرج انعدامه إلى الفعل كان المحل باقياً مع ذلك الانعدام كصورة النطفة التى تنعدم عن مادتها وتكون المادة مع انعدامها موجودة وبهذا الدليل لا ينعدم شيء من الموجودات سوى ما يحل فى محل كالصورة والأعراض وما يركب منهما ومن غيرهما كالجسم الذى ينعدم بأحد جزئيه وهو الصورة) . خصص الفيلسوف بهذا الكلام الفناء على موجود ممكن حال فى محل كالصور والأعراض ويكون المحل مستعداً للبقاء مع فناء ذلك الحال وزواله عنه كصورة النطفة الفانية مع بقاء مادة النطفة والفناء على رأيه يختص فى الموجودات بما يحل فى محل الصور والأعراض وما يركب منهما كالجسم بوصف الجسمية الفانى بفناء صورته

التى هى أحد جزئيه وبين ثانى الاعتراضين بقوله : (فإن قيل لو كانت النفس مركبة من حال ومحل كالجسم لجاز عليها العدم) ودفعه بقوله : (قلنا لا يجوز العدم على الجزء الذى هو المحل ونحن نعنى بالنفس ذلك الجزء دون ما يحل فيه فإن النفس كما تقرر شىء يرتسم فيها كثير من الصور بحيث يحدث فيها ويزول عنها وهى لا تنعدم بانعدامها وإذا ثبت أن النفس ليست بصورة للبدن ولا بعرض حال فيه ولا بمركبة من حال ومحل ثبت أن الفناء لا يجوز عليها) .

مفاد هذا الكلام على اختصار تام أن النفس لو كانت مركبة من حال ومحل كالجسم المركب من الصورة الحالة والمادة التى حلت الصورة فيها وقوام الجسم بهذين الجزئين لتوجه الاعتراض ولكن النفس ليست مركبة منهما بحيث يكون قوامهما بهما كالجسم وذلك أنا نرى أن كثيراً من الصور يحدث فيها ويزول عنها فهى مع ذلك الحدوث والزوال باقية ثابتة فالنفس هى المحل الذى يحدث فيها الصور ويزول عنها وإذا ثبت أن النفس ليست بصورة للبدن ولا بعرض حال فيه ولا بمركبة من حال ومحل فالفناء لا يجوز عليها (هذا ما حضرنى فى الوقت مع اشتغال القلب مما أستند به من كلام العلماء فى هذا الباب والله أعلم بحقيقة الحال .



الخاتمة

إن الأبحاث الدقيقة التى قام بها كبار العلماء من الطبيعيين والفلكيين والفيزلوجيين والامتحانات التى أجريت فى المجامع العلمية فى القرون الأخيرة أصبحت ناتجة عن الرأى بأن الحد الفاصل بين الأحياء والأموات ليس على ما يظنه الناس من الخطورة فإن الموت ليس فى ذاته إلا انتقالا من حال مادى جسدى إلى حال مادى آخر . ولكن أرق منه وألطف بكثير فإنهم يعتقدون أن للروح جسماً مادياً شفافاً لطيفاً ألطف من هذه المادة بكثير ولذلك لا تسرى عليها قوانينها[1].

وهذا الرأى يقرب عما ورد فى فروع الكافى تصنيف الإمام أبى جعفر محمد بن يعقوب بن إسحق الكلينى الرازى بعدة طرق عن سيد علماء التابعين الإمام أبى عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام أن أرواح المؤمنين فى أجساد كأجسادهم إذا قدم عليهم القادم من الدنيا عرفهم (روى على بن إبراهيم عن أبيه عن الحسن بن محبوب عن أبى ولاد الحناط عن أبى عبد

(١) انظر دائرة المعارف للعلامة فريد وجدى - فى كلمة الروح.

الله عليه السلام قال المؤمنون فى أبدان كأبدانهم) سهل بن زياد عن إسماعيل بن مهران عن درست بن أبى منصور عن أبى مسكان عن أبى بصير عن أبى عبد الله عليه السلام قال: (إن الأرواح فى صفة الأجساد) عن محمد بن يحيى عن أحمد ابن محمد بن عيسى عن محمد بن خالد عن القاسم بن محمد عن الحسين بن أحمد عن يونس بن طيبان قال (يا يونس إذا قبض الله المؤمن صير روحه فى قالب كقالبه فى الدنيا إذا قدم عليه القادم عرفه بتلك الصورة التى كانت فى الدنيا) عن محمد عن أحمد عن الحسين بن سعيد عن أخيه الحسن عن زرعة عن أبى بصير قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن أرواح المؤمنين قال روح المؤمن كهيئة الأجساد فى الجنة. فيالله من سلالة طاهرة هم نجوم مضيئة بنورهم أشرقت سماء العلم.

تم بحمد الله



فهرست كتاب
بقاء النفس بعد فناء الجسد

رقم الإيداع :١٣٠٩٦/٢٠٠٤
الترقيم الدولى : I.S.B.N
277-316-081-2